

راس الحمار في حضني

[أياميات الحرب على قطاع غزة]



HANIEL SALMY

هاني السالمي

اشترت حدائي مرتين

خرجنا من البيت ولهائنا عالٍ جداً، لهائنا يشبه نفخ تنين بعيون حمراء، سائق الشاحنة كان نزقاً جداً، فعجلنا بالخروج من البيت، فلم نأخذ كل أدواتنا [حاجتنا] وتركنا خلفنا ملابسنا الصيفية، خاصة أحذية المناسبات، كانت في علبة كرتون تحت سرير في غرفة النوم، خاصة أمي التي تركت خلفها في خزانتها البنية المزخرفة بنحت فرعوني قديم، أثوابها المطرزة بالحريير الأحمر والأزرق، مكحلتها النحاسية، كان عندنا اعتقاد أننا لن نغيب كثيراً عن البيت سوى يوم أو يومين، حتى تهدأ الصواريخ وصوت القنابل والزنازة التي كانت تلاحقنا في كل مكان، عندما تحركت الشاحنة بدأ شعور بعدم العودة إلى البيت يكبر، بالفعل صرنا جزءاً من تاريخ النزوح الحديث أنا وعائلي، وتغير الحال من بيت فيه كل ما تحتاجين إليه للحياة ناعمة ومريحة إلى خيمة من قماش وأخشاب ونايلون.. بدأت ملابسنا وأحذيتنا التي جلبناها من البيت ليلة الهروب تهترئ، وكانت العودة صعبة إلى البيت لجلب أشياء أخرى، سمعنا وقتها أن البيت كله قُصِف فصار غباراً، ذهبت إلى السوق لأشتري حذاء، وأنا أتقلب على المعروض في السوق تجد أنهم يعرضون أشياء من أدوات كهربية وكاسات الزجاج وأدوات المطبخ تعرفها، لأن في الحرب انتشر بعض اللصوص، يسرقون البيوت المقصوفة، وأكد بيتنا كان له

نصيب من النهب والسرقة، فجأة تصاب بصاعقة كبيرة تظل واقفاً من دون حركة، تجد حذاءك الماركة الإيطالية الأسود اللامع الذي اشتريته بمبلغ كبيرة لمناسبة زفاف أختك الصغيرة، فأنا أحب هذا الحذاء لأنه جعلني مثل آل باتشينو، هممت ناحيته وحملته وقلت للبائع: هذا حذائي من أين جئت به؟ وقبل أن أكمل كلامي رفع سكيناً في وجهي وبصوت أجش: أنا اشتريته من رجل وأريد أبيعته وأربح به، الذي سرقه من بيتك غير موجود.

الأيام ثقيلة في النزوح، تنزل دموعك بدون سبب، من القهر الذي تعيشه في الخيمة

وقفت برهة من الزمن وقلت في نفسي عليّ أشتريه بأي ثمن، بالفعل اشتريت حذائي مرتين، وحملته إلى الخيمة، لكن في الحرب لا يوجد مكان للمناسبات السعيدة.. كل الذي أخافه في هذه الحرب أن تطلب مني أمي أن أذهب إلى البيت وأحضر لها أثوابها والمكحلة النحاسية، ماذا سأقول لها

شركاؤنا في النزوح

الأيام ثقيلة في النزوح، تنزل دموعك بدون سبب، من القهر الذي تعيشه في الخيمة، وقتها عليك ترك أسلوبك في الحياة قبل النزوح (مزاجك) وتضعه في علبة كرتون وترميها مع علب الكرتون المعدة للنار مع قطع الخشب، ولأن الأيام تدور بسرعة تصبح مراقباً جداً لما حولك، في بداية الأمر تعد الخيام من حولك، بعدها تعد كم شخصاً يسكن في الخيمة الواحدة، تمل من العد، بعدها تصبح متأملاً للنجوم والكواكب وتكتشف النجوم والذب الأكبر والذب الأصغر وتتعجب كيف كانوا في القديم يستدلون على الشمال، تزهق من النجوم والكواكب ولون السماء، تتطور بسرعة وأنت تراقب من حولك، تجد أن هناك شركاء لك في مخيم النزوح، منهم الغرابان الزوجان اللذان يمتلكان المنطقة ويمنعان أي غراب يدخل على منطقتهم وكم معركة صارت، المفاجأة أن الغرابين يأكلان بقايا معلبات الفاصولياء والبازلاء والأرز المصري وبقايا التونة وتقدر أن تفتح بمنقارها العلب المعدنية لأي طعام، في وقت صرخت فيه سيدة من إحدى الخيام لأنه لدغتها حشرة كبيرة اسمها أم أربع وأربعين، حشرة جميلة طويلة قريبة لصغير الحية، بالفعل لها أرجل كثيرة ومتناسقة بجسم انسيابي أسود ناعم الملمس، لكن عليك قتلها، لكن يوماً بعد يوم تكتشف أنك تعيش في مملكة أم أربع وأربعين، ومن أجمل الشركاء زوجا الحمام البني، لونهما جميل لكن هديل الحمامة الأنثى قريب للنواح بل لعبارة "يا خيبيتي يا خيبيتي" وبالفعل هديلها ينذر بثقل الخيبة التي تعيشها في مخيم النزوح، أمّا هذا الشريك الثالث فهو الخنفساء العملاقة الكبيرة

السوداء عندما تدخل عليك الخيمة تقف كالمسمار خوفاً منها والصغار يرتعبون، ولأنك رجل الخيمة عليك أن تحمل هذه الخنفساء بحذر خارج الخيمة، ذباب الصباح هو الشريك الأكثر كرهاً من النازحين، لأنه طوال الليل لا نعرف النوم خوفاً من القصف ومنتظر الصباح حتى ننام، لكن يأتي الذباب يهجم عليك من كل مكان حتى يجعلك فريسة للأرق وقلّة النوم، حتى وأنت في النزوح ومغلوب على أمرك ومجبر على العيش، والشريك الأخير هو غير حيوي لا يمشي ولا يأكل ولا ينام ولا يتكاثر، إنه الرمل الأصفر الخشن الذي تجده بين أصابع قدميك طوال الوقت، تجده في أذنك، في جيوبك الخلفية والأمامية، يرسو في الأحذية، يشاركك الفراش، وأيضاً في أدوات المطبخ من كاسات وطناجر، في بداية النزوح كنا نحاول أن نتخلص من الرمل الأصفر لكن مع الأيام يصير صديقاً لك في كل وقت، فتقبل به لا غنى عنه، إن فكرة شركاء لك في الحياة أقصد شركاء في النزوح، شيء جديد على حياتنا، لكننا نعيش معها .

أغنية ونصان

تفرك أرنبه أنفك في كل لحظة من لحظات الحرب المتواصلة، ليس للتفكير فقط، ولكن من الغبار المنتشر في الشوارع، تصاب بمتلازمة الزكام، لأن جرافات الاحتلال حين تدخل إلى أي مكان تعيد الطرق المعبدة والبيوت إلى بدايتها الأولى، غبار ورمل، تُفاجأ كيف في لحظة تتحول المادة الصلبة من الإسمنت والحديد إلى غبار ورمل، كيف تغوص بيوت كبيرة تحت الأرض ولا يظهر منها أي شيء، وقتها تحك أرنبه أنفك وأنت تتأمل هذا الدمار، الذي يشبه زلزالاً كبيراً، لكنه زلزال أعور، لأنه يدمر خمسة بيوت ويترك بيتاً واحداً من دون أن يصاب بأذى، لكن في المقابل البيوت الخمسة المدمرة ينجو سكانها من الموت، أما البيت غير المدمر يموت سكانه، فتكتشف معادلات غريبة تحدث أمامك لا تفسير لها ولا يمكن لعلماء الرياضيات حلها .

إن فكرة شركاء لك في الحياة أقصد شركاء في النزوح، شيء جديد على حياتنا، لكننا نعيش معها

وقتنا كله من دمار وقصف متواصل من دون توقف مثل طائر نقار الخشب الذي ينقر آلاف النقرات ليُحدِث ثقباً صغيراً في شجرة ليبنى عشاً أو ليخرج دودة ليأكلها، لكن هذا القصف المتواصل لا نعرف ماذا يريد بالضبط منا. الناس وقت الحرب هربوا إلى جهات باعتقادهم أكثر أمناً وحماية، الكل يدل الآخر إلى الأماكن الأكثر أمناً، يلتصق الناس بعضهم ببعض، في كل متر واحد

تجد عشرة أشخاص يمشون ويركضون ويصلون ويغتسلون ويأكلون
وينامون ويضحكون ويبكون وينامون في هذا المتر الواحد، حين أرى هذه
الزحمة المرعبة، أتذكر أغنية [أحمد عدوية] زحمة يا دنيا زحمة وتاهوا
الحياب، وأكررها في كل وقت خاصة وقت الزحمة .

جلب لنا النزوح [الطواير] التي تجبرنا على الوقوف فيها. طابور على الماء
الحلو، وطابور للحصول على الخبز، وطابور للحصول على الدواء المجاني،
والطابور الأكثر شراسة ورعباً طابور الحصول على الكابونة [السلة
الغذائية]. تقف ساعات وساعات وقد تصاب بضربة شمس وإغماء
للحصول عليها، وقتها أتذكر نصاً لمحمود درويش بعنوان "لا شيء يعجبني".
عن جد لا شيء يعجبني في مكان النزوح .

فجأة وبدون سابق إنذار تختفي البضائع من السوق، ومنها السكر، هذه
السلع الأكثر طلباً للنازحين. يا سلام حين تشتاق أن تشرب كأساً من الشاي
محلى بالسكر وأنت تجلس أمام خيمتك، والأكثر تعاسة أنك لا تجد سكرًا في
أي مكان، فأتذكر نص صديقتي الكاتبة [هند جودة] لا سكر في المدينة،
وأقول وقتها لا سكر في الخيمة ولا ملح للحياة...

[أصبحت نازحاً]

تلة العشاق، مكان مرتفع حوالي 4 أمتار على شاطئ بحر خان يونس تطلّ على رزقة البحر بمشهد يعجلك تحمها رغم صغرها، بالقرب منها لسان بحري من صخور إسمنتية يمتد حوالي كيلو متر داخل البحر، تتلاطم الأمواج مع هذه الصخور فتصنع رذاذ عندما يصفع وجهك يصيبك شعور لطيف، وسميت بهذا الاسم لأن أغلب الأزواج والمخطوبين والعشاق يصعدون عليها بقلوب مليئة بالحب والضحكات [....]

كانت ليلة صعبة جدا وصلت إلى درجة الموت علينا في معسكر خان يونس بالقرب من الهلال الأحمر، ليلة الهروب من بيتنا لم تهدأ القذائف لمدة 12 ساعة متواصلة، صوت مخيف ممنوع الحركة ولا تشعل ضوء و عليك النوم على بطنك ولا ترفع رأسك أنت وعائلتك، الرصاص والقذائف لم تترك بيت وإلا أصابته، الخوف والصراخ احتل بناي الخمسة وزوجتي، في الصباح قررنا الهروب عند بيت عمي الكبير عند شاطي البحر، حملت عائلتي الكبيرة المكونة من 13 فردا، أبي وأمي وزوجتي وبناتي الخمسة وأخي وزوجته وطفله الصغير، على شاحنة صغيرة، حملنا فراش وأغطية وأدوات مطبخ، وبعض ملابسنا وأحذية بشكل سريع وصلنا المكان بعد عن نجونا من الموت، عمي رجل كريم أجلسنا في بيت بالقرب منه، يومين أخذنا من الوقت حتى هدأنا من الخوف، خرجنا من البيت لنجد تلة العشاق أمامنا، ركضنا وصعدنا عليها، لنطل على رزقة البحر، لكن المكان لا يوجد به ماء ولا كهرباء، و عليك أن تجلب الماء من البحر لتغسل ملابسك وأدوات المطبخ، وكنا نشترى الماء

الحلو من شاب يبيع الماء على كارة حمار، وعليك أن تمشي مسافة 2 كيلو متر حتى تحصل على تيار كهربائي لتشحن موبايلك أو بطارية لتضيء على عائلتك، الليل عند تلة العشاق مخيف بل قاتل من العتمة وصوت الكلاب الذي لا يهدأ وخطوات المارة الغرباء، وصوت الدبابات التي تحتل مدينة خان يونس... كان معنا بعض العائلات جاءت من أماكن متفرقة تعرضت للقصف والموت والخوف، وأصبح يطلق علينا كلمة [نازحين] جاء رجل وأخذ أسماءنا وصار يرسل لنا المعلبات الفاصولياء والبازلاء وبعض الخضار، يوم بعد يوم صارت تلة العشاق مليئة بالنازحين وفي الصباح الجميع يصعد فوق التلة ويراقب أمواج البحر بصمت ...

[2] رأس الحمار في حضني

في الحرب تبدأ مقومات الحياة تختفي من السوق وخاصة الوقود من السولار والبنزين والغاز، وعليك الركوب على كارة حمار لتصل لأقرب سوق من مكان النزوح الذي تمكث فيه، ركبنا حوالي عشرة أشخاص على كارة الحمار وصاحبه كان نزقاً معنا طلب أجرة الركوب كأنك تركب سيارة حديثة، لكن عليك القبول بما يريد لتصل للسوق، الزحمة كبيرة لا توصف في كل متر واحد عشرين شخص والخيام المصنوعة من القماش والنايلون وبعض

الأخشاب تنتشر في كل مكان، منظرها يجعلك تفقد الكلام وتسرح بعقلك
وجسدك إلى مكان بعيد، الناس في الزحمة تشبه بعضها البعض الملامح
واحدة الرائحة واحدة العيون جاحظة والشعر مجعد والذقون كبيرة،
والأحذية معبرة، فجأة تجد رأس حمار في حضنك، الكارة التي خلفنا
التصقت بنا، ولسوء حظي رأس الحمار كان في حضني، في بداية الأمر تشعر
في خوف كبير من هذا الرأس، تحاول أن تهرب منه، لكن لا مناص منه، أكثر
من عشرة دقائق تقف في مكان مع رأس الحمار من زحمة الموجودة في المكان.
كان الحمار يرمقني بنظرة غريبة، عيونه كبيرة سوداء وأنفه واسع يقدر أن
يسحب الأكسجين الذي يكفي مئة شخص مثلي، أسنانه طويلة بيضاء، لكن
يبدو أن الحمار حزين مثلي، لأنه ولد حماراً، وأنا ولدت في قطاع غزة، هذه
البقعة الغريبة الصغيرة التي لا تنتمي للعالم، قطاع غزة التي تشبه عقلة
إصبع وتدور الكرة الأرضية عليه... يبدأ الصراخ والعراك بالأيدي بين
العالقين في الزحمة، لأن صوت سيارة الإسعاف يقترب من المكان تحمل
بعض المصابين والشهداء أثر قصف الطائرات لمكان بالقرب من السوق...
تذوب الزحمة كأنها قطعة ثلج مع صوت آخر لقصف قريب، الكل يركض إلى
مكان آمن، يجبرك صاحب الكارة بالنزول، لكن أنا وحدي الذي بقيت عالقا
لأن رأس الحمار في حضني .

أنا سارق

أيام الحرب ثقيلة، تكسر الأكتاف وتفقدك المتعة والابتسامة، صوت الرصاص والقذائف في كل مكان، صوت سيارة الإسعاف هو الشيء الوحيد الذي يمكنك تسمعه في كل ثانية، وقتها يتحول وجهك الطري إلى جاف كشقوق الطين، تشعر أن السماء ستطبق على صدرك، لا يوجد مكان آمن يمكنك الجلوس به فترة الحرب، بناتي مثل كل الأطفال في الحرب اشتهن السكاكر ورقائق البطاطا، وأنا لم أقدر أن أوفر لهن ما يطلبن، بسبب ندرة الأشياء أو ارتفاع سعرها الباهض، في الحرب أيضا تشتاق إلى أنواع اللحوم

والفواكه، والسكر توفيره كان أكبر مشكلة، مع كل هذه المشاكل اليومية التي لا تحصى في الحرب التي تصيبك، تجلس أمام الخيمة فارغ من أي تصرف، يأتي أحد الجيران ليخبرك أن النازحين هجموا على مخزن به جميع الأطعمة والمعلبات والدقيق، فكرت وقتها أن أذهب للمكان وقد اشتري أطعمة بأي سعر مناسب، وصلت للمكان كان يوجد مئات الشباب ومئات النساء والأطفال يحاولوا أن يكسروا باب المخزن لكنه كان باب حديدي قوي جداً، لم يقدر أي أحد على فتحه أو إحداث فتح فيه، في لحظة صار الجميع يركضوا إلى خلف المخزن حيث أن أحد الشباب استطاع أن يحدث فتح كبيرة في جدران المخزن الخلفية، أنا كنت واحد من الذين دخلوا من الفتحة وصرت داخل المخزن أمام عدد لا نهائي من الحاويات الصغيرة من الكرتون داخلها الأطعمة من الدقيق والسكر والمعلبات، في لحظة وقفت ماذا أفعل أنا هنا، كيف تحولت من رجل يحب القراءة والكتابة والروايات والقصص إلى سارق، لم استغرق وقت طويل في اللوم على نفسي فتحولت إلى وحش كبير بوجه غريب بمخالب، حملت كرتونة كبير تزن حوالي 20 كيلو لا أعلم كيف حملتها، وسرت بها ناحية الفتحة وبكل قوة وبجهد كبير خرجت من الفتحة، وإلا كان ينتظر عشرات النساء اللاتي لم يقدرن من الدخول إلى المخزن، فهجم عليّ ومزقن الكرتونة من يدي حاولت أن أدافع عن ما سرقت، حاولت وحاولت حتى وصلت إلى نهاية الزحمة والعراك، فلم يبقى معي إلا وكيس سكر بوزن كيلو، فقد 19 كيلو في دقيقة، لم أحزن نجحت في الوصول إلى

بناتي بالسكر، لكن كانت ثيابي ممزقة وفقدت جزء من حذائي وبعض
الخدوش في وجهي، صغيرتي الرابعة جودي رقصت من الفرحة عندما وجدت
في يدي السكر، صنعنا الشاي بالسكر بعد عشرة أيام من الاشتياق له ...